المجلس الدولي للغة العربيّة
بيروت - لبنان

المؤتمر الدولي الثالث للغة العربيّة

(7 -10 مايو 2014م – دبي – 8 – 11 رب 1435ه.)

تحت عنوان

الاستثمار في اللغة العربية ومستقبلها الوطني والعربي والدولي

البحث:

استثمار اللغة العربيّة في تذوّق بلاغة القرآن الكريم
"دراسة تحليلية لنماذج من الآيات القرآنيّة"

الأستاذ المشارك الدكتور نصرالدين إبراهيم أحمد حسين
أستاذ النقد الأدبي والبلاغة
قسم اللغة العربيّة وآدابها
الجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا

استثمار اللغة العربيّة في تذوّق بلاغة القرآن الكريم
"دراسة تحليلية لنماذج من الآيات القرآنيّة"

الأستاذ المشارك الدكتور نصرالدين إبراهيم أحمد حسين
قسم اللغة العربيّة وآدابها
كليّة معارف الوحي والعلوم الإنسانية
الجامعة الإسلاميّة العالميّة بماليزيا

مقدمة

يتناول هذه البحث "استثمار اللغة العربيّة في تذوّق بلاغة القرآن الكريم؛ دراسة تحليلية لنماذج من الآيات القرآنيّة"، بحيث تقوم الدراسة على تحليل نماذج لبعض الآيات القرآنية تبرز فيها مهارة اللغة العربية في استيعاب النص القرآني، بحيث اُختيرت صاحبة الجلالة، اللغة العربية من بين اللغات الإنسانيّة لتكون لغة الوحي السماوي الذي شرّفها الله سبحانه وتعالى ليتنزّل بها قرآنه الكريم. فالقرآن الكريم أنزل باللغة العربيّة، تكريماً لها، لتكون لغة التنزيل، قال الله عزّ وجلّ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. نزل القرآن الكريم معجزة بيانية على الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان قومه أصحاب منطق ولسان،وفصاحة وبيان،يعتزون ويفخرون ببلاغتهم وفصاحة ألسنتهم. فقد جادت عليهم الطبيعة بموهبة القول فتفننوا فيه، مستمدين من سليقتهم ذلك، وتعددت أمامهم مذاهب التعبير من قصائد ومقطعات وخطب وأراجيز،وأصبحوا يباهون الأمم الأخرى، ويعدونه فضلا لهم، وميّزة دون سواهم. فينزل القرآن بلسانهم وباللغة التي يألفونها، وبالكلمات التي يجيدون حبكها، ويبرعون في نظمها فيهتزون ويأخذهم الإعجاب والدهش، ويتوافدون على النبي عليه السلام يسمعون لهذا القرآن، فهم يستمعون إلى معجزة السماء في الأرض:﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ،نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ،عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ،بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾. ويروعهم أسلوبه،ونظمه،وإحكام آياته حتى يخرجهم القرآن من دهشتهم بقوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. إذن القرآن الكريم خطاب يبعث في اللغة العربية الحياة والنمؤ، ويغذيها بالأساليب البلاغية المختلفة المتنوعة، ونحن نتذوق جمال اللغة العربية وحلاوتها وبهائها ورونقها وبيانها وفصاحتها فيه. فالقرآن الكريم منهل عذب، تنهل اللغة العربية منه بلاغتها وفصاحتها وبيانها. فمشكلة البحث تترتكز في صعوبة فهم وتذوق الدلالات الخفيّة التي تكمن خلف الأسلوب القرآني؛ وخطابه. والسؤال الرئيس في البحث يكمن في: ما الوسيلة المثلى التي يمكن أن نصل عن طريقها إلى فهم القرآن فهماً عميقاً، وتذوق أسلوبه وخطابه الذي فاق طوق البشر؟ أمّا المنهج المناسب لهذا البحث، فهو المنهج الاستقرائي، والتحليلي.ومن أجل ذلك، جاء هذا البحث ليحقق هذا الهدف، وهو" استثمار اللغة العربيّة في تذوّق بلاغة القرآن الكريم". حقا أن القرآن الكريم معين لا ينضب ماؤه، ويبقى القرآن معجزة كلامية على الزمن يتناوله المفكرون والباحثون بالدراسة والبحث وطول التأمل،فيزداد أمام بصائرهم توهجا، ويبقى للبشرية نبراسها المضيء، وطريقها إلى الحياة، وتبقى اللغة العربية هي اللغة المستوعبة لخطابه، وأساليبه الجميلة، وبلاغته وبيانه. سوف نختار بعض آيات من سور

القرآن الكريم كنماذج للتحليلي والتذوق، والتأكيد على مدى استيعاب اللغة العربية للخطاب القرآني دون غيرها .

أولاً: سورة هود

۞وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ،وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ،وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ،فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ،حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ، وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ،وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ، قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ،وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ۞ [1].

نبدأ بحمد الله وشكره على نعمائه الكثيرة التي لا تعدّ، ونثني بالصلاة على رسوله المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن اصطفى.

نلحظ هنا أن هذه الآيات بدأت بقوله تعالى": (وأُوحي إلى نوح)، والفعل هذا ثلاثي مزيد بالهمزة، وهو فعل مبني للمجهول، والفعل لازم، والهمزة همزة قطع. وموضع السؤال: لماذا بُني الفعل للمجهول والفاعل معلوم، وهو الله عزّ وجلّ؟ ولماذ حرف الجر جاء ب(إلى) بدلا عن (اللام)؟ ولماذا جاءت (أن) مع الهاء؟. ولماذا استخدمت (لن) بدلا من (لم)؟. ولماذا أضاف (القوم) إلى نوح؟ وغير ذلك. أسئلة تحتاج إلى تأمل، واجتهاد وتفكير عميق.

وقد حسّنا القرآن الكريم أن نتفكر، ونعقل الأشياء، ونبصرها بعين ثاقبة، وبصيرة نافذة، ومن ثم نحاول أن نجتهد في تعليل هذه الأسئلة، وما التوفيق إلا من عند الله سبحانه وتعالى. الوحي من خصائص الله - سبحان وتعالى – وهو الذي يُوحي إلى أنبيائه، ولم نسمع أن إنساً أو جنّاً أوحى إلى رسولٍ أو نبيّ بالأفعال التي يجب أن يقوم بها. إذن بُني الفعل للمجهول مع أن الله - عزّ وجلّ – معلوم، نسبة للإيجاز، لأن الفاعل معلوم لا حاجة إلى ذكره. أو إثبات أن الوحي لا يأتي ولا يكون إلا من عند الله الواحد القهار، وهذا تأكيد وتصديق بالله سبحانه وتعالى. أمّا استخدام (إلى) دون (اللام)، لأن (إلى) حرف جر يفيد العموم، واللام حرف جر يفيد التمليك أو الخصوص.

فالوحي ليس مقصورا على سيدنا نوح، بل لكل الأنبياء، فقد أوحى الله لسيدنا محمد، وسيدنا عيسى، وسيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى وغيرهم من الأنبياء. فلو وُضعت (اللام) بدلا من (إلى) لظنّنا أن الوحي فقط يكون خاصاً بسيدنا نوح عليه السلام. كما لو قلت: أرسلت دعوة النكاح إلى سعيد. المقصود سعيد وغيره. ولكن عندما نقول: أرسلت دعوة النكاح لسعيد. المعنى لسعيد فقط،

[1]- سورة هود، الآيات، 36 إلى 44.

وليس لغيره. كما فُتحت الهمزة (أن)، لأنها وقعت وسط الكلام، وجاءت (أن) هنا للتأكيد مع ضمير الشأن، الذي يرجع إلى الله سبحانه وتعالى، لأنه هو صاحب الشأن. واستخدمت أداة النصب (لن) دون الجزم (لم)، لأن (لم) تفيد الحاضر وليس المستقبل، أمّا (لن) مع التأكيد فهي تفيد الحاضر والمستقبل. فعندما تقول: لم يذهب إبراهيم إلى الجامعة، المعنى أنك تجزم أنه لم يذهب الآن، ولكنه قد يذهب بعد ذلك، أو في المستقبل. ولكن إذا قلت: لن يذهب إبراهيم إلى الجامعة، فهذا تأكيد أنه لن يذهب في الحاضر أو في المستقبل، أي أنك نفيت عنه الذهاب فأصبح ممتنعاً في الحاضر أو المستقبل. والإضافة هنا تعني النسبة، لأن المراد قوم سيدنا نوح دون غيرهم. لذا كان القصر هنا قصراً حقيقياً على الذين آمنوا من قوم نوح الآن، لا يتعداهم إلى المستقبل. لأن الله – سبحان وتعالى- أعلم بالغيب، فهو -عزّ وجلّ- يعلم أنه لن يؤمن أحد منهم في الحاضر أو المستقبل إلا من كان قد آمن من قبل. وجاء ب(قد) مع الفعل الماضي لتأكيد الحدث. لأن (قد) إذا جاءت مع الفعل الماضي فهي تفيد التأكيد أيضا، نقول: سعيد قد ذهب إلى المعهد. وهنا تأكيد بذهاب سعيد إلى المعهد. ولكن لو قلنا: سعيد قد يذهب إلى المعهد. فهذا احتمال لا محالة، لأن (قد) مع الفعل المضارع تفيد الاحتماليّة. وقوله: (أنهم مغرقون)، بصيغة اسم المفعول، وليس بيصغة اسم الفاعل (غارقون)، لأن هناك من قام بهذا الفعل، وهذا إثبات له، وهو الله - سبحانه وتعالى- فهو الذي أغرقهم.

وجاءت الآية (من آمن) معطوفة على الآية (احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ)، لأن الكلام لا يستقيم إذا عُطفت على الآية **(إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ)**. وهذه بلاغة التقديم والتأخير. ولذلك لتجانس العبارات مع بعضها بعضاً. ثم ختمت الفاصلة بقوله (غفور رحيم)، لأن الله - سبحانه وتعالى- غفور بعباده ورحيم بالذين آمنوا، فالمغفرة والرحمة فقط للذين آمنوا لا لغيرهم من المشركين. وابن سيدنا نوح كان من المشركين، ولم يطع والده فينجو من هذا العذاب الأليم ولذا **(فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ)**، وليس من الغارقين، حيث دلّ اسم المفعول أن الفعل تمّ بفعل فاعل، أي أن الفاعل هو الله سبحانه وتعالى.

ثم كان خطاب الأرض، و تنكيرها، وأمرها مع أن الأرض معرفة. ولكنها أمام الله – سبحانه وتعالى – نكرة، ولأن الأرض المقصودة في الآية، هي بقعة معينة محددة كان يقطنها قوم نوح، وليست كل الكرة الأرضيّة، لأن الله – عزّ وجلّ – أوقع العذاب على قوم سيدنا نوح عليه السلام. والنكة البلاغيّة واضحة في إسناد الماء للأرض، وليس السماء، لأن الماء أصله الأرض، حيث يتبخر الماء من الأنهار والبحار والمحيطات، ويصعد إلى السماء، وتحدث عملية التكثيف، ويصعب حمله على الهواء، فيعود من حيث أتى، أي إلى منبعه الأصلي، وهي الأرض. والنكة في كلمة (استوت)، وليس (رست)، لأن السفينة ترسو على الميناء، ولذا سُمّيت الميناء (مرْسى)، ولكن هنا الوضع يختلف، فالسفينة تأتي من أعلى إلى أسفل أي رأسيّاً، وليس أفقيّاً كالمعتاد. ثم خُتم الحدث بقوله: **(وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)**، وأبعد الشيء أزاله من مكانه، بحيث لا يترك آثار من بعده، فالكلمة مختارة في المكان المناسب لها، فقد تمّ استئصال قوم نوح - الذين أشركوا بالله - من الأرض. والنكة في الظالمين؛ لأنهم ظلموا أنفسهم، بعد أن جاءهم الهدى من عند الله – سبحانه وتعالى – وظلم النفس أشدّ أنواع الظلم.

وقد حلل الإمام عبد القاهر الجرجاني هذه الآيات القرآنية مستخلصا منها أسرار الإعجاز في القرآن الكريم،حيث قال:"فتجلى لك منها الإعجاز،وبهرك الذي ترى وتسمع،أنك لم تجد ما وجدت

من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض،وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة؟وهكذا إلى أن تستقريها إلى أخرها،وأن الفضل تناتج ما بينها،وحصل من مجموعها.إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدّت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ قل(ابلعي) واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، وكذلك فاعتبر سائر ما يليها. وكيف بالشك في ذلك ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض،ثم أمرت،ثم في أن كان النداء ب(يا) دون (أي) نحو (يا أيتها الأرض)،ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلعي الماء،ثم أن اتبع نداء الأرض وأمرها بما هو شأنها،نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها،ثم إن قيل وغيض الماء،فجاء الفعل على صيغة (فعل) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر،وقدرة قادر،ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى:(وقضي الأمر) ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو:(استوت على الجودي)، ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن،ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة بقيل في الفاتحة أفترى لشئ من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة،وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع،وحروف تتوالى في النطق؟أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب؟"[2].

ويكشف الإمام عبد القاهر الجرجاني-في تحليله هذا-عن مناط الإعجاز البلاغي في الخطاب الأسلوبي للقرآن الكريم،ويرى أن وجوه الإعجاز ليست شاخصة في إفراد الألفاظ القرآنية،فإعجاز القرآن إنما يكمن في نظمه في تأليف الكلام وارتباط بعضه ببعض،وإدراك العلاقات بين أجزائه بحيث تتلاءم معاني الألفاظ مع المعاني التي تليها،فكل لفظة في موضعها الذي خصص لها،لتعبّر عن خطاب أسلوبي معيّن ومحدد لا يتعداه إلى خطاب آخر فالخطاب في قوله تعالى:(يا أرض)،لا يمكن بأي حال أن يتغيّر أو يتبدلّ إلى(يا أيتها الأرض)، فشتان ما بين الخطابين ، فالخطاب الأول يفيد التقيد والتحديد،فالأرض معيّنة محددة،تلك التي عاش فيها قوم سيدنا نوح عليه السلام،أمّا الخطاب الثاني فإنه يفيد الإطلاق والعموم،ويعني جميع أنحاء الكرة الأرضية،فيؤدي إلى اللبس والغموض والتعقيد في فهم الأسلوب ولذلك لا يمكن لأحد أن يبدل أو يغيّر أو ينكّر أو يعرّف أو يقدّم أو يؤخّر في ألفاظ القرآن الكريم.وهذه خاصيّة التفت إليها الإمام عبد القاهر الجرجاني في نظريته في نظم القرآن .

نجد للدكتور أحمد أحمد بدوي تعليق طريف على هذه الآيات يكشف عن تحليل الخطاب الأسلوبي في القرآن الكريم حيث يقول:"إذا نظرت إلى مفردات الآية الكريمة،تجد أنها مفردات من جنس الألفاظ لا تفاضل بينها فالفعل الأول في صدر الآية ماض مبني لما لم يسم فاعله،وبعده نداه بيا والمنادي هو الأرض.

أما نظم هذه المفردات في أية على تلك الهيئة فأمر آخر،يختلف كل الاختلاف لأنها دخلت حينئذ مجال التصوير الحسي فكشفت عن لون من ألوان الصراع المر بين نبي هو نوح،وجماعة من البشر هم قومه لتوضح منهج الحياة الأزلي الذي يمكن في الاحتدام بين الخير والشر،فتتربى

---

[2]-**دلائل الإعجاز**، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تصحيح محمد عبده، ومحمد محمود التركيزي الشنقيطي، تعليق السيد محمد رشيد رضا، (بيروت: دار المعرفة، بيروت-لبنان، الطبعة الثانيّة، عام 1419ه – 1998م)، ص 35 – 46.

النفوس الإنسانية على حبّ الخير،وكراهية الشر.وإذا قرأت هذه الآيات مكتملة في موقف نوح عليه السلام وقومه بان وجه الصراع،وتكشفت قيمة النسق الفني،والتآخي بين الألفاظ ومدلولاتها.

فالصراع يتمثل في نوح الصابر المصابر الذي عاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما،يدعو قلوبا غلفا،باللين والحسنى،ويتعرض للأذى والكيد من قوم لا ينبضون بإحساس الإنسان،فيعزيه ربه،ويسليه بقوله:"فلا تبتئس بما كانوا يفعلون"ليطيب خاطره،وتهدأ نفسه،ويطمئن إلى رعاية ربه.

ثم يتعرض نوح للون آخر من ألون الاستهزاء،وهو يصنع الفلك، فيسخر منهم كما يسخرون، ويفور التنور، ويحمل نوح في فلكه من كل زوجين اثنين كما يحمل أهله المؤمنين، ومن صدق به من عامة الناس،وهم قليل.

وتنطلق السفينة تحدوها رعاية الله،في موج كالجبال،وتضطرب نفس الوالد لشقاء الولد وملاقاته أسوأ المصير الذي يلقاه قومه،وينفر الولد إلى جبل يعصمه من الماء ولكن لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم،من أدركته رحمة الله."وحال بينهما الموج فكان من المغرقين". فهذه سلسلة متوالية من الصراع ومشاهد متتابعة من فوران الشر على هضبات الخير ترسمها الآيات في ائتلاف واتساق. وتنقضي هذه المأساة في برهة كلمح البصر،كأن لم يكن هؤلاء القوم،وكأن لم تنهمر السماء،وكأن لم تنفجر الأرض ينابيع ولما كان هذا الأمر قد صدر إلى الكون من غير أن يسمعه من في الكون أو يروا قائله،بني الفعل للمجهول وأوثر في نداء الأرض (يا) دون الهمزة ، لما يدعو اجتماعها مع همزة أرض إلى ثقل على اللسان في النطق بهما،وفضلت كذلك على (يا) لما في هذه من زيادة تنبيه ليست الأرض- وهي رهن أمر الله- في حاجة إليه.

وأوثر تنكير الأرض لما في ذلك من تصغير أمرها،فالمقام هنا يستدعي التصغير،لأنها ماثلة أمام القوة العليا التي تتضاءل دونها قوى الطبيعة ويستدعي أيضا الإسراع بتلبية الأمر،فالألفاظ تمثل ما تتطلبه المعاني،أو بعبارة أخرى،القوالب على قدر الأفكار،لا زيادة ولا نقص،مع الإحكام في النسيج والدقة البالغة في النظم،والإعجاز في الصياغة.

وتجئ كلمة (ابلعي) مصورة لما يراد أن تصنعه الأرض بمائها،وهو أن تبتلعه في سرعة سريعة،بل في غمضة عين.وكلمة (ابلعي) افضل من(امتصي) مثلا لأنها لا تدل على ما تدل عليه الأولى من الإسراع في التشرب،وفي إضافة الماء إليها ما يوحي بأنها جديرة بأن تمتص ماء هو ماؤها،فكأنها لم تكلف من أمرها عسرا.وقل مثل ذلك في قوله:"ويا سماء أقلعي"ولاحظ هذا التناسق الموسيقي بين:(ابلعي وأقلعي)وبُني:(غيض) للمجهول مصورا بذلك إحساس من شاهدوا هذا المنظر الطبيعي،فهم قد رأوا الماء يغيض،والأمر يتمُ،وكأنما حدث من تلقاء نفسه،في سرعة دونها اللمح،دون أن يكلف عناء أو مشقة بل هناك امتثال للأمر،لا مناقشة ولا محاورة،واختيرت كلمة:"استوت"دون"رست" لما في كلمة استوت من الدلالة على الثبات المستقر،ولما فيها من الدلالة على التمكن من الاطمئنان،والسلام في رحلة الحياة لمن يستحقون الحياة،فالسفينة مستولية على الطوفان،وليس الطوفان مستوليا على السفينة،إذن لابتلعها.

وبُني الفعل:قيل للمجهول إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يعد كثرة،حتى لكأن أرجاء الكون تردد هذا الدعاء سخطا وتبرما بما حدث من قوم نوح الذين أصموا آذانهم،واستغشوا ثيابهم،وعموا واستكبرو استكبارا وجاءت كلمة:"بعدا" دون "هلاكا"،إشارة إلى أن هلاك هؤلاء إنما قصد به إبعادهم عن الفساد في الأرض والسخرية بمن آمن وعمل صالحا كما قصد به أن يبعدوا عن رحاب الرحمة التي وسعت كل شئ إلا هم وإبعادهم إنما كان بما كسبت أيديهم،واقترفت جوارهم،وفيه احتقار لهم،لأن القرآن أشاح عن مخاطبتهم،وأغفل حالهم،واكتفي بقوله في الموقف الشديد العصيب:"بعدا للقوم الظالمين".وفي هذه الكلمة راحة نفسية لهؤلاء الذين آمنوا ، وصدقوا وجاهدوا،وركبوا السفينة مع نوح فتخلصوا من مال شنيع،وعذاب فظيع،وتشرد وضياع.

ثم انظر إلى الجمل القصيرة في الآية،وكيف توحي بسرعة انقضاء عهد هؤلاء الذين لم تطمئن قلوبهم بذكر الله.فقوله تعالى:"يا أرض ابلعي ماءك" أمر على سبيل الإلزام كما لا جدال فيه ويجرد من الأرض الصماء إنسانا عاقلا شاخصا أمام البصر،يستجيب لأمر العلي القدير."ويا سماء أقلعي". وأنك ترى نفس النمط سارت عليه الجملة الأولى في سرعة خاطفة،حتى أن الناظر إلى الأرض يراها جافة يابسة والناظر إلى السماء يراها صافية مشرقة،"وغيض الماء"،"وقضي الأمر"،وكانت النتيجة في غمضة عين جفت الأرض،ويبست وأسدل الستار على المأساة،عن طريق فعل مبني للمجهول،ونائب فاعله لا أكثر ولا أقل،لأن الموقف يستلزم الإعجاز الذي يترك النفوس وقد هالها الروع."واستوت على الجودي"،"وقيل بعدا للقوم الظالمين".

تلكم آثار المأساة، نجاة وسلام للذين آمنوا،وهلاك وبعد للذين ظلموا أنفسهم فكانوا هم الظالمين،وبناء هذه الأفعال للمجهول"قيل،غيض،قضي"في نسق واحد يترك النفوس في تيه من الحيرة فمن قال للأرض؟ومن أمر السماء؟ويأمر من انقضى الأمر؟ لا بدّ أن هناك قوة وراء الملك تسيطر عليه فلا تبين بل تتبيّن آثارها،وهذا مجال الإيمان والتفكير في وجود الله "[3].

استطاع الدكتور أحمد بدوي أن يغوص في أعماق الأسلوب القرآني وأن يستخلص لنا من ذلك ملاحظات مثمرة طيّبة،تكشف عن الخطاب الأسلوبي للقرآن الكريم،فتحليل الخطاب الأسلوبي للقرآن الكريم يتطلب الإمعان والتعمّق في النص القرآني،من زوايا كليّة تنظر إلى النسق القرآني بوصفه وحدة متكاملة الأطراف،فكل طرف يؤدي إلى الآخر في تلائم وانسجام،وهنا تتكشف لك الأفكار،وتظهر المعاني،وتتضح الرؤية النصيّة جليّة صافية مشرقة كضوء الشمس أناء النهار.

ومن استعراض الآية الكريمة اتضح لنا أن اللفظة في حد ذاتها أمر عادي يقدر عليه كل الناس،وهو في استطاعة الإنسان فإذا سلكت في نظم واستقامت في تعبير،وأخذت مكانها في أسلوب،كان لها دلالة فنية ترتفع وتنخفض،وهي من أرفع الدلالات في أسلوب القرآن."وهل يقع في وهم أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم،بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة،وتلك غريبة وحشية،أو أن تكون حروف هذه أخف،وامتزاجها أحسن،وما يكد اللسان أبعد،وهل تجد أحد يقول هذه اللفظة فصيحة،إلا وهو

---

[3]-**من بلاغة القرآن**، أحمد أحمد بدوي، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، الفجالة، د.ت.)، ص 55، 56.

يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لأخواتها؟ وهل قالوا:لفظة متمكنة ومقبولة،وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية "[4].

فقد اتضح إذن كما ذهب الإمام عبد القاهر:إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة،بل تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ[5].

وعن طريق ما ذهب إليه الإمام عبد القاهر الجرجاني،والدكتور أحمد أحمد بدوي نستطيع أن نقف عند تحليل الخطاب الأسلوبي للقرآن الكريم لإدراك الخطاب المعرفي في ضوء هذا التحليل.فالخطاب المعرفي في القرآن الكريم لا يُدرك إلا عن طريق هذا التحليل الأسلوبي الذي يُقيم وزنا للكلمة داخل السياق التركيبي الجملي،حيث لا مجال للألفاظ المفردة إلا داخل النص القرآني.وترابط النص القرآني وتماسكه،بطريقة توفيقية من عند الله سبحانه وتعالى هي التي تكشف عن إدراك العلاقات بين الجزء والكل،بين العام والخاص.

وهي التي تقود إلى معرفة التأثير الآلي للقرآن الكريم على سامعيه،فالقرآن وحي السماء على الأرض،كلام الخالق البارئ المصور أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير،فالعمل على إدراك سرّ بلاغته يتطلب جهدا جهيدا في التعامل مع أسلوبه بطريقة تتحقق فيها مقاصد القرآن الكريم،وما يهدف إليه من معاني سامية رفيعة تهذب الشعوب،وترتقي بالأمم.

ثانياً: سورة الأنعام

كان من الأهداف التي سعى إليها الإمام عبد القاهر الجرجاني في نظريتـه في النظم القرآني هي شرح ما تميّزت به أساليب القرآن الكريم من دقة وفنيّة وإبداعيّة فاقت طوق البشر.

ومن أمثلة هذا النمط القرآني المبدع الذي تحدث عنها الإمام عبد القاهر،قول الله تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ**﴾ [6].حيث قال:"ليس بخاف أن لتقديم الشركاء حسنا وروعة،ومأخذا من القلوب،أنت لا تجد شيئا منه إن أنت أخرّت،فقلت:وجعلوا الجن شركاء لله،وأنت ترى حالك حال من نقل عن الصورة المبهجة،والمنظر الرائق،والحسن الباهر إلى الشيء الغفل الذي لا تخرج منه بكثير طائل،ولا تصير النفس به إلى حاصل وسبب ذلك هو أن للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلا لا سبيل إليه مع التأخير،بيان هو أن نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء ، وعبدوهم مع الله تعالى،وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم،فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معنى آخر،وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن.

---

[4]-**دلائل الإعجاز**،الإمام عبد القاهر، ص 36.
[5]-**المصدر السابق**،ص 38.
[6]-سورة الأنعام، آية 100.

وإذا تأخر فقيل:جعلوا الجن شركاء لله،لم يفد ذلك،ولم يكن فيه شئ أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى،أما إنكار أن يعبد مع الله غيره،وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه،وذلك أن التقدير يكون مع التقديم أن"شركاء مفعول أول لجعل و"لله" في موضع المفعول الثاني،ويكون "الجن" على كلام ثان، وعلى تقدير كأنه قيل:فمن جعلوا شركاء لله تعالى؟فقيل الجن.

وإذا كان التقدير في"شركاء" أنه مفعول أول و"لله" في موضع المفعول الثاني وقع الإنكار على كون شركاء لله تعالى على الإطلاق من غير اختصاص شئ دون شئ وحصل من ذلك أن اتخاذ الشريك من غير دخل في الإنكار دخول اتخاذه من الجن،لأن الصفة إذا ذكرت مجرّة غير مجراة على شئ كان الذي يعلق بها من النفي عاما في كل ما يجوز أن تكون له تلك الصفة.

فإذا قلت:ما في الدار كريم:كنت نفيت الكينونة في الدار عن كل من يكون الكرم صفة له وحكم الإنكار أبدا حكم النفي.وإذا أخر فقيل:وجعلوا الجن شركاء لله. كان "الجن" مفعول أول،والشركاء مفعولا ثانيا،وإذا كان كذلك كان الشركاء مخصوصا غير مطلق من حيث كان محالا أن يجري خبرا على الجن ثم يكون عاما فيهم وفي غيرهم، وإذا كان كذلك احتمل أن يكون القصد بالإنكار إلى الجن خصوصا أن يكون شركاء دون غيرهم،جل الله أن يكون له شريك،وشبيه بحال"[7].

وبالإضافة لما ذكر الإمام عبد القاهر الجرجاني ، فقد أفاد تقديم لفظ الجلالة في الآية،وتأخير لفظ الجن،الأمور التالية:

1-إثبات الوحدانية لله وحده.

2- انفراده بالعبادة والاستعانة.

3-إنكار الشراكة في عبادته.

4-نفي وإنكار عبادة الجن معه.

5-عدم الاستعانة بالجن.

6-اختصاصه بالتبجيل والاحترام والتقديس.

وتتجلى الوحدانية لله عزّ وجلّ في تقديم لفظ الجلالة، حيث تظهر بلاغة التقديم؛ لأنه هو المقدّم، وهو المتفرد باسمه لا إلى غيره. والمقدم هو المختص بالعبادة دون أدنى شك.ولذلك انفراده بالعبادة والاستعانة يظهر في إضافة حرف اللام للفظ الجلالة، والتي تفيد التمليك. فالعبادة له وحده لا شريك له في ذلك، أي أننا لانعبد إلا إياه، ولا نستعين إلا به. وتتبيّن قضية إنكار الشراكة في عبادته، في فصل لفظ الجن عن أسم الجلالة،وإبعاده في نهاية الآية،حيث لا تجد

---

[7]-دلائل الإعجاز في علم المعاني،الإمام عبد القاهر الجرجاني،ص 192-193صحح أصله الأستاذ محمد عبده،ومحمد محمود التركزي الشنقيطي،علّق عليه السيد محمد رشيد رضا،دار المعرفة،بيروت-لبنان،الطبعة الثانية، 1419هـ-1998.

عطفا بين لفظ الجلالة والجن.والأسلوب الإنكاري المستوحى من الآية ينكر وينفي عبادة الجن معه،وعدم الاستعانة بهم، لأنك كيف تستعين بما ليس له سلطان عليك؟. أمّا عن دلالة التبجيل والتقديس، فواضحة من صيغ التقديم والتمليك والنفي لعبادة الجن مع الله عزّ وجلّ، لأنه هو الحق، وما دونه باطل.

ثالثاً: سورة الشعراء

قال الله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ،وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ،وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ،وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾ [8].

نلحظ – في هذه – الآيات دلالات بلاغيّة متعددة ومتنوعة، بالرغم من إيجازها. وهذه الدلالات تكمن فيما وراء التقديم والتأخير، والحذف والذكر، وحروف العطف،والتكرار، والسجع، والإيجاز، والتناسق الصوتي، واختيار الألفاظ التي تتناسب مع المعاني. فالقرآن خطاب متكامل، يتكامل فيه الشكل مع المضمون، اللفظ مع المعنى.

نلحظ - في جانب بلاغة الحذف والذكر- أن الضمير المنفصل (هو) تارة يذكر، وأخرى يحذف؛ فقد ذكر مع هذه الأفعال:

(يَهْدِينِ، يُطْعِمُنِي، وَيَسْقِين، ويَشْفِينِ)، والعلة في ذلك، لأن بعد الخلق يدّعي هذه الأشياء، أو يظن البعض - دون قصد- أن هذه الأفعال يمكن أن يقوم بها البشر، ولذلك جاء الضمير المنفصل للتأكيد أن هذا الأعمال والأفعال من خصائص الله - سبحانه وتعالى- وهؤلاء البشر وسيلة لتحقيق هذه الأشياء لا غير. وأمّا حذف الضمير المنفصل، لأن هذه الأشياء لا يكون فيها أدنى شك أو إرتياب، وذلك لأن (الخلق، والموت، والحياة، والغفران) لا يستطيع أحد من البشر أن يقوم بذلك، وإذا ادّعى أحد من البشر ذلك، سنطلب منه أن يفعل.

وهناك نكات بلاغية في التقديم والتأخير؛ فقد قدّم الخلق على الهداية، وهذا تقديم الزمن، لأن الخلق يأتي أولاً ثم الهداية ثانياً. كما الشيء الطبيعي أن يسبق الطعام الشراب وهذا من حيث الترتيب، والأهميّة، والجانب الصحي بالنسبة للإنسان. وأيضا نرى تقديم المرض على الشفاء، وهو من خصائص تقديم الزمن، لأن المرض يأتي أولا، ثم يعقبه الشفاء. ثم قدّم الموت على الإحياء. لأن تقديم الإحياء على الموت أمر ماثل أمامك لا يستطيع أحد إنكاره. ولذا قدّم الموت على الإحياء لبيان الحجة والدليل، وأن الله - عزّ وجلّ- هو الذي يحي ويميت، وهو ربّ الكون.

ونجد هناك دقّتٌ متناهية في استخدام حروف العطف: (الفاء، الواو، ثم). فعندما جمع بين الخلق، والهداية وضع حرف العطف (الفاء)، لأن الخلق تعقبه الهداية، فالفاء للتعقيب. وعندما جاء بالطعام والسقيا (الشراب)، وضع حرف العطف (الواو) الذي يفيد المصاحبة. بينما وضع حرف العطف (ثمّ) بين الموت والحياة، لأن الأمر يأخذ زمناً طويلاً، يحتاج إلى التأني. ونلحظ أن اسم الموصول (الذي) قد تكرّر في أربعة مواضع، وذلك لتأكيد أن هذه الأفعال المتوالية إنما هي أفعال الله – عزّ وجلّ – ولهذا توالت صلة الموصول لتأكيد هذا الوجه من البلاغة.

---

[8]-سورة الشعراء،آية 79 – 83.

وقد لعب الجانب الموسيقي، والتناسب بين الألفاظ دوراً كبيراً جدا. فهناك السجع والتماثل. حيث جاء السجع في هذه الفواصل (يَهْدِينِ، وَيَسْقِين، ويَشْفِينِ، ويُحْيِينِ)، حيث نجد جميع الفواصل متماثلة تماماً. ولكن نلحظ أن القرآن الكريم لا يضحي بالمعنى من أجل اللفظ، أي المضمون من أجل الشكل، لأن هذه الفواصل جاءت لتفيد التكامل بين الشكل والمضمون.

ذكر ضياء الدين بن الأثير، وتبعه حمزة بن يحي العلوي أن عطف السقي على الإطعام بالواو إرادة الجمع بينهما،وعطف الشفاء على المرض بالفاء لأن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما،ثم عطف الثالث بثّم لأن الأحياء بعد الموت إنما يكون بمهلة وتراخ[9]. أما قول ابن الأثير،والعلوي،إن تقديم الإطعام على الاسقاء،والاسقاء على الإطعام جائز لولا مراعاة حق النظم،فلا يخلوا من مجازفة،لأن الاستعمال القرآني قدّم الإطعام على الاسقاء،والأكل على الشرب،والعلة أنه ترتيب بالطبع والمنطق والأهمية والوظيفة الحيوية،ففكرة الجواز لا تناسب الموقف في هذا الأمر.

وتعبير الإمام العلوي بأن مراعاة حسن النظم والمشاكلة أوجب ذلك يلم بشيء من أسرار التقديم هنا ولا يستوفيها،ثم إن قول ابن الأثير إن الشفاء يعقب المرض بلا زمان خال من أحدهما،يثير الريبة في موقف ابن الأثير الذي يشن حربا على الإغراق العقلي والفلسفي في معالجة البلاغة،ثم ينسى هو ذلك أحيانا،وربما لم يستطع أن يتخلص بالتأكيد من ثقافة عصره،ولذا عدّل العلوي هذا التعبير،ونقل عن الرازي ما يفيد مع تعقيب الشفاء للمرض،التنبيه على عظم المنّة بالعافية بعد المرض من غير تراخ[10].

والواقع هذا مقام ثناء على الله تعالى بتعداد نعمه التي توجب عبادته تعالى،ثم تمهيدا للدعاء الضارع،ولذا أسند إبراهيم عليه السلام المرض إلى نفسه حسن أدب وإيماء إلى ما في التفريط في المأكل والمشرب من أسباب للمرض.

وأرى أن إسناد الشفاء إلى ربه بضمير الفصل بالفاء أملا في الشفاء الحسن المحبوب وإسراعا بتعديد النعم،وثناء على الله باقتداره على الشفاء العاجل،فالفاء لم تفد تعقب الشفاء للمرض فحسب بل أفادت مع أن المرض قصير،تتدارك رحمة الله بشفاء سريع لا يطول بعدمه المرض.

والواضح من آيات سورة الشعراء هذه،ارتباط التغاير في حروف العطف بالترتيب الزمني طولا وقصرا،واستخدام نماذج من حروف العطف بدقة متناهية،وحكمة بالغة،لا يدركها إلا أولي التفكر والتبصر والتأمل في الأسلوب القرآني.

ولا يمكن في مثل هذه الآية أن يتبدل أو يتغيّر حرف العطف بآخر،فإذا حدث هذا أختل المعنى،وغمض الأسلوب،وتعقدت الفكرة،ومن ثم كان استعمال هذه الحروف العاطفة،والتي وردت في الآية الكريمة قمة في الإبداع الأسلوبي،أو الأسلوب الإبداعي في القرآن الكريم وهذا الترتيب ألتزمه القرآن الكريم في كثير من سوره وآياته.

---

[9]-**المثل السائر،ابن الأثير**، ضياء الدين بن الأثير، (مصر: الطبعة الأولى، د.ت.)، 2 / 26، **والطراز**، العلوي 2/ 42.
[10]-**التفسير الكبير**، الفخر الرازي، (مصر: الطبعة الأولى، د.ت.)، 24/ 145.

ونقف قليلا عند ضمير التأكيد في الآية الكريمة،وما ذهب إليه الشيخ محمد متولي الشعراوي في هذا الشأن،فالله-سبحانه وتعالى- يخاطب دائما ملكات النفس البشرية،ويرد عليها ببلاغة وبدقة متناهيتين،بحيث تجد أنه عندما تتغير كلمة واحدة من الكلمات،فإن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يعطي معنى جديدا،أو يفهم شيئا جديدا،وهذه الدقة الهائلة،تجدها موجودة بكثرة في القرآن الكريم،مثلا إبراهيم عليه السلام يقول:"فإنهم عدو لي إلا ربّ العالمين الذي خلقني فهو يهدين".

هنا نتوقف لنسأل:لماذا لم يقل إبراهيم عليه السلام (هو) الذي خلقني فهو يهدين،وقال:الذي خلقني فهو يهدين،لأن الخلق ليس محتاجا إلى تأكيد فليس هناك إنسان مهما كبر وعظم وحكم الدنيا كلها،يستطيع أن يدعي إنه يخلق إنسانا،وإلا فسنطلب منه أن يفعل ذلك،وسيعجز،إذن فالخلق لم يدعه أحد،ولذلك فإنه غير محتاج إلى تأكيد،إنما الهداية هناك مئات الألوف مما يدعون أنهم يهدون الناس،بعضهم وضع مناهج ضد الدين،والمهم أنهم جميعا يدعون أنهم يريدون هداية البشر،وكل إنسان يضع نظاما يخضع لأمره وهواه،ويدعي أنه للهداية.

ومن هنا كان لا بدّ من التأكيد على أن الهدى من الله وحده،إن الحق والطريق المستقيم من الله وحده،وهكذا نرى أن الضمير هنا كان لا بدّ من وضعه،وأن الضمير في الجزء الأول من الآية لم يكن هناك حاجة للتذكر به،فالخلق صفة من صفات الله،لا ينازعه فيها أحد،فهو ليس محتاجا إلى تأكيد،وإنما الهدى فيه ادعاءات من الناس وهناك تأتي كلمة(هو)ضرورة،ثم تأتي بعد ذلك في:"والذي هو يطعمني ويسقين". لأن الإنسان يكسب ثمن الطعام والشراب،فهناك ادعاءات كثيرة في الرزق.

ومن هنا فإن هذه الادعاءات محتاجة إلى أن يقول الله سبحانه وتعالى كلمة:"هو يطعمني ويسقين"، ويقول أيضا:"وإذا مرضت فهو يشفين"،ذلك إننا بين الطبيب والدواء ننسى إرادة الله سبحانه وتعالى.ثم بعد ذلك نأتي إلى عدم وجود كلمة هو في قوله تعالى:"والذي يميتني ثم يحيين"،ولم يقل: والذي (هو) يميتني ثم (هو) يحيين.لأنه لا أحد يستطيع أن ينازع الله في مسألة الموت والحياة،ولا يدعيها لنفسه،ومن هنا كان التأكيد غير لازم لمقتضى الحال.

وهكذا نرى في هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى يأتي بالضمير فيضعه مرّة،ويحذفه مرّة ،لأن المقام يقتضي ذلك،ولأن دقّة التعبير في القرآن الكريم تجعل الكلمة الواحدة توضع في المكان المناسب لتعبر عن المعنى الدقيق البالغ الدقة،سواء من ناحية الإضافة أو الحذف،أو اختيار الكلمات،ولو أن الله سبحانه وتعالى استخدم كلمة (هو) في كل الآيات التي ذكرناها،أو حذف كلمة (هو) من كل الآيات التي ذكرناها،لما تنبه لذلك معظم الناس لمعنى الحديث على أساس أنه كلام بشر،ولكنه كلام الله سبحانه وتعالى[11].

رابعاً: سورة الصافآت

[11]-**معجزة القرآن**،الشيخ محمد متولي الشعراوي، جمع وترتيب الأستاذ أشرف حسين، (مصر: الناشر مؤسسة أخبار اليوم، إدارة الكتب والمكتبات)، ص 50 – 51 .

ونضرب مثالا للتشبيهات في القرآن الكريم، ونستمع لبعض العلماء والأدباء في محاورتهم لهذه التشبيهات الرائعة. ومن ذلك قول اللع سبحانه وتعالى:﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ،طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ،فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾**[12].

يذهب الأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي إلى أن القرآن لا يشبه محسوسا بمعقول،ويؤول قوله تعالى هذا بقوله:"فالذي سمح بأن يكون المشبه به خاليا،هو ما تراكم على الخيال بمرور الزمن من أوهام رسمت في النفس صورة رؤوس الشياطين في هيئة بشعة مرعبة،وأخذت هذه الصورة يشتد رسوخها بمرور الزمن،ويقوى فعلها في النفس،حتى كأنها محسوسة ترى بالعين وتلمس باليد،فلما كانت هذه الصورة من القوة إلى هذا الحد ساغ وضعها في موضوع التصوير والإيضاح.

ولا نستطيع أن ننكر ما لهذه الصورة من تأثير بالغ في النفس،ومما جرى على نسق هذه الآية قوله تعالى﴿ **وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنْ الْآمِنِينَ﴾** [13].

ففي الخيال صورة قوية للجان،تمثله شديد الحركة،ولا يكاد يهدأ ويستقر"[14].وتحقيق هذه المسألة أن بعض العلماء أنكر وقوع هذا النوع من التشبيه في القرآن،محتجين بأنه جرى على الأصل الأبلغ في أن الحسي أصل للعقلي وقال آخرون بوقوعه محتجين بقوله تعالى:﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ،طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾** [15].

وقد سأل إبراهيم الكاتب العرياني أبا عبيدة في مجلس الفضل بن الربيع عن معنى الوعيد في ذلك،وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله،وهذا لم يعرف،فقال:إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم،أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط،ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به، فاستحسن الفضل ذلك،واستحسنه السائل[16].

ويقول الجاحظ،وليس أن الناس رأوا شيطانا قط على صورة،ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجها وكراهتها،وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالإيحاش والتنفير وبالإحاطة والتقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين،وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم.

ثم يقول وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين:أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن[17]. ورد على من يقولون:بأنه كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه،ولا

---

[12]-سورة الصافات، آية 63- 65.
[13]-سورة القصص،آية 31.
[14]-**من بلاغة القرآن**،الدكتور أحمد بدوي، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، الفجالة، د.ت.)،ص 194.
[15]-سورة الصافات،آية ،64-65.
[16] -**نزهة الألباء**، ابن الأنباري، (القاهرة: طبعة المدني، د.ت.)،ص143.

وُصف لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق "وإن كنا نحن لم نر شياطين صُور رؤوسها لنا،صادق بيده،ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان يضعون ذلك في مكانين:

الوجه الأول:

أن يقولوا:لهو أقبح من الشيطان!

والوجه الأخر:

أن يسمى الجميل شيطان على جهة التطيّر به،كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء،والمرأة الجميلة صماء وقرناء وخنساء وجرباء وأشباه ذلك على جهة التطيّر به.وفي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح،والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين ثبت في طباعهم غاية التثبت ... فما القول في ذلك إلا كالقول في الزبانية وخزنة جهنم وصور الملائكة الذين يتصورن في أقبح الصور إذا حضروا لقبض أرواح الكفار،وكذلك في صورة منكر ونكير،ويكون للمؤمن على مثال،وللكافر على مثال[18].

والقول في هذه المسألة ما ذهب إليه الأستاذ علي الجندي من أن في الآية ثلاثة أقوال:

1-أن الشياطين هم متمردة الجن القباح الصور،والمناظر كما وقر في أذهان الناس.

2-أن الشياطين هم الحيّات على جاري تسمية العرب،فهم يعتقدون هذا الاعتقاد الذي ساد بينهم.

3-أن الشياطين شجر مخصوص منكر الصورة.

وأرجح هذه الأقوال هو الأول،لأن العرب كانت تتمثل الشياطين كما تتمثل البوم على غاية الشناعة،كما كانت تصف الملائكة بالحسن والجمال ولهذا زعموا أنهم بنات الله،تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

انظر إلى ما يتركه هذا التشبيه من أثر يمثل أمامك الخوف الأبدي من تردد يعقب الندامة والهوان،ويمثل أمامك هؤلاء الذين يستبدلون خيرا بشر وسعادة بشقاء،يمثلون أمامك ذاهلين عن أنفسهم،أو ذاهلة نفوسهم عنهم لا يدركون ما حولهم،وكأنه ليسوا من الحياة[19].

إذن لم يكن التشبيه في القرآن هدفاً يقصد إليه دون أن يستتبع المعنى، ويكون جزءاً أساسياً تتوقف عليه دلالة الآية، فهو نمط من أنماط التصوير القرآني الذي أعجز بلغاء العرب، وظل شامخاً في مجال القول، ومعجزة باهرة تتردد عبر العصور، فلم يتناولها البلى أو التفكك، فالتشبيه إذن ليس محسناً خارجاً عن إطار المضمون، يتجمّل به النظم، وترشق به العبارة، وإنما هو جوهر داخل في المضمون، ليتضح أثره النفسي، والأساس النفسي الذي يقوم عليه التشبيه،

---

[17] - **الحيوان**، للجاحظ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، (بيروت: الناشر دار الكتاب العربي،بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة، عام 1969م.)، ج4، ص 13.

[18]- المصدر السابق ،6/ 65.

[19]- **فن التشبيه**، الأستاذ علي الجندي،ج 2، ص103 – 104.

وغيره من الأساليب البيانيّة من حيث تأليفها وإدراكها وتقديرها، هو في الواقع عملية أساسية في التفكير، تلك هي ما بين بعض الأشياء وبعض من تشابه وعلاقات[20] .

الخاتمة؛ النتائج والتوصيات.

1- إن اللغة العربيّة لغة ذِوّاقة، تستوعب – دون اللغات الآخرى – العصر والحضارة، وهي صالحة لكل زمان ومكان، بوصفها لغة القرآن الكريم.

2- إن إدّعاء الغربيين، ومن سلك مسلكهم، استخدام الحروف اللأتينية بدلاً عن الحروف العربيّة، لأن الحروف العربيّة فيها قصور، وعدم استيعاب للمعلومات والحضارة، ادّعاء باطل، لا يقوم على الدليل، أو الحجة.

3- إن اللغة العربيّة بوسائلها المختلفة، وأساليبها المتنوعة، وفنونها البلاغيّة، ستكون - إن شاء الله- اللغة الأولى في العالم، في المستقبل القريب.

4- نوصي الدول المقتدرة بطباعة ونشر كتب التراث العربي، وهي كتب قيّمة ونادرة ومفيدة، للأجيال القادمة حتى يتعرّفوا على قيّمة تراثهم المجيد.

5- نوصي الدول المقتدرة أن تسعى في تحقيق، وتوثيق المخطوطات العربيّة التي مازالت تزيين مكتبات الغرب، على سبيل "هذه بضاعتنا رُدّت إلينا".

6- نوصي أن يكون المؤتمر القادم، يتعلق بوسائل اللغة العربية المختلفة، وفنونها، وأساليبها في تذوّق، واستيعاب الحضارات المختلفة، وثقافاتها.

وأخيراً نحمد الله حمداً كثيراً على نعمائه الوفيرة، وآلائه الكثيرة، وإن التوفيق منه وله، وعليه، وأن يجعلنا من العاملين الصالحين الذين يستمعون إلى القول، ويتبعون أحسنه.
وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

[20]-**دراسات في علم النفس الأدبي**، حامد عبد القادر، (القاهرة: الطبعة الأولى، د. ت.)، ص41.